روســـــيا والسلم

الأستاذ عمر حليق

هنـاك تعليلان فى رأى (ماكس بيلوف)(١) للأسباب التى دعت موسكو مؤخراً لأن تحمل غصن الزيتون وتواجه خصومها حلفاء الغرب أمام الرأى العام العالمى بأنهم دعاة حرب لا يرضون الدخول فى مفاوضات مباشرة لتدعيم السِّلْم فى هذا الجو الذى ازداد توتراً .

أما التعليل الأول فيقول بأن روسيا جادَّة فى حملتها السلمية الأخيرة ، وأن التحطيم الذى أصاب المدن والمعاسكر الروسية فى الحرب المنصرمة هو تحطيم طاحن لا يزال هوله يسيطر على مخيلة الشعب الروسى فهو يخشى الحرب حقاً ويبغى السلم ، وأن حالته النفسانية هى كحالة معظم سكان أوربا الذين نالتهم المجزرة الأخيرة بويلاتها . ولذلك فإن هذا التعليل يجد من يؤمن به من الأوربيين خصوصاً أتباع الأحزاب اليسارية التى تميل إلى مسايرة السوفيات. ويقول أنصار هذا التعليل كذلك أن العقلية الروسية ليست عقلية عسكرية كعقلية الشعوب الجرمانية ، ولذلك فإن حرباً طاحنة كالحرب المنصرمة كانت كافية لأن تزيل نشاوة العنف والنطرسة العسكرية من أعين الروس فتجعل رغبتهم فى السلم حقيقية .

أما التعليل الثانى فيقول إن مراكز التوجيه فى قيادة روسيا السوفياتية اليوم فى يد جماعة من المتهوسين وهم مسؤولون عن مسلك موسكو الحالى فى العلاقات الدولية ، وأن ستالين هو أسير هذه الجماعة التى منها مولوتوف وزير الخارجية وكبار قادة الجيش السوفياتى . وأنه لو تسنى لأحد أن يخترق هذا الحصار المضروب على ستالين — كما فعل عدد من الصحفيين الأجانب فى موسكو مؤخراً — لوجد أن لديه استعداداً حقيقياً للسلم . ويبدو لى أن المستر ترومان ومتشاوريه الخصوصيين فى البيت الأبيض من أنصار هذا الرأى . فهم يعتقدون خطأ أو صواباً بأن ستالين رجل « طيب القلب » على حد تعبير ترومان يرغب فى السلم لو تخلص من أسر (البوليت بيرو) المكتب السياسى الأعلى للاتحاد السوفياتى .

هذان هما التعليلان اللذان يقومان لتفسير حملة السلم التى صدرت عن القيادة الشيوعية الدولية فى الأسابيع الأخيرة .

ولنا أن نتساءل أولا : هل الروس راغبون فى السلم حقاً ؟ وإذا اقتنع حلفاء الغرب بهذه الرغبة ، فلماذا لا يمدون يدهم للروس لتدعيم السلام فى نية صادقة ؟

والجواب على هذا التساؤل صعب . فإن تاريخ السوفيات فى روسيا يشير إلى سرعة التقلب فى سياسة روسيا الخارجية عند ما تتطلب منها الظروف ذلك . وخير مثل على ذلك اتفاق روسيا وألمانيا النازية فى مطلع الحرب العالمية الثانية بالرغم مما فى المذهبين (الشيوعى والنازى) من التناقض والمعاداة والتنافس . ومن أبرز الأمثلة على التقلب موقف الشيوعية السوفياتية من الصهيونية التى وصفها ستالين فى كتاب (الماركسية ومشاكل

(١) أستاذ النظم المقارنة فى جامعة اكسفورد .

وهل كان فشل مؤتمر فرنكفورت فى ألمانيا — قبل قرن واحد من يومنا هذا — أقل خطراً من فشل مجلس جامعة الدول العربية هذه السنة ؟ ألم يقل بعض الساسة — عقب انحلال المؤتمر المذكور — « أن الألمان فقدوا حتى قابلية الدفاع عن أنفسهم ؟» ألم يتساءل بعض الكتاب عندئذ قائلين : « أين هى ألمانيا ؟ هل لها وجود فى غير مخيلة بعض الشعراء وأحلام بعض رجال السياسة » ؟ ومع كل ذلك ، ألم تتحقق وحدة ألمانيا فى حياة المكبرين ممن حضروا مؤتمر فرنكفورت الفاشل ؟

وبناء على هذه الملاحظات أقول بلا تردد : لا يجوز لنا أن نترك مجالا لتسرب الخور والقنوط إلى أنفسنا . ويجب علينا أن نعلم علم اليقين : أن النكبة لا تصل إلى حدها الأقصى إلا عندما تثبط العزائم ، كما أن الفشل لا يصبح تاماً إلا عندما يؤدى إلى التقاعس عن مواصلة العمل والكفاح ...

فعلينا أن نحذر كل الحذر من العمل على زيادة النكبة وإتمام الفشل .. بالاستسلام إلى القنوط والخور ...

أبو خلدون ساطع الحصرى

الأقليات والاستعمار) الذى صدر سنة ١٩٢٠ بأنها « حركة رجعيـة انتهازية ، وأنها وليدة الاستعمار الغربى » . وقد كانت الصهيونية محرمة فى روسيا ومضطهدة إلى ما قبل بضع سنوات (عام ١٩٤٣) ، وكانت تحارب فى السر والعلانية . فإن هـذا الموقف الروسى يحاضر العلاقات بين موسكو ويهود فلسطين والتحالف السوفياتى الصهيونى ترعنصر هذا التقليد الانتهازى فى سياسة السوفيات الخارجية . وهو فى الواقع تقليد لا تخلو الدبلوماسية الدولية إجمالاً منه وإن كان يبدو عادياً فى سلك السوفيات .

فقد تكون إذن حملة السلام الروسية الجديدة خطوة انتهازية جديدة يتطلبها الموقف الدولى ، دفع إليها حمل الشعوب فى المعسكر الغربى على الحد من برامج التسلح الهائلة التى تندفع الآن دول الحلف الغربى فى تنفيذها . والضرب على وتر السلام الحساس فى البلدان الديمقراطية خصوصاً فى الولايات المتحدة يجد صداه فى مجتمع يشكو من ارتفاع الضرائب التى تتطلبها هذه الالتزامات الضخمة التى تفرضها مشاريع مارشال وشريعة ترومان والبرنامج الجديد لتوسيع هذا النوع من الحرب الاقتصادية فى بلدان الشرق والقارة الأفريقية وأمريكا اللاتينية .

هذا بالإضافة إلى أن حدة الموقف الدولى تفرض تعاوناً وثيقاً بين بريطانيا وأمريكا ، فإذا خفت هذه الحدة وشاعت الرغبة فى السلام التى تذكيها حملات ماهرة كحملات الشيوعية الدولية فإن هذا التعاون الإنجلوسكسونى سيفتر بينما تمضى روسيا قدماً فى برامجها المنظمة التى تتقيد — فى ظل الاقتصاد الماركسى الموجه — بتحالف ثنائى فى مجال الاقتصاد والاستعداد العسكرى فى القارة الروسية على الأقل .

فمن خبراء الشؤون الروسية إذن من يقول بأن هذه الخطوة الروسية السلمية ليست إلا تكتيكا لا يستر حقيقة المقاصد والنايات . ويؤكدون بأن رسوخ النظام السوفياتى فى روسيا اليوم ورسوخ العقيدة الماركسية فى أذهنة حلتها تجعل التقلب فى التصريحات والسلك الخارجى أمراً سهلاً يستطيع الروس اللجوء إليه دون أن يبدلوا حقيقة سياستهم من خصومهم ومن برامجهم الواقعية لبلشفة العالم . ولنا فى الصهيونية مثل على هذه الحقيقة .

فكانا يعلم كيف أن الأحزاب والجماعات اليهودية فى فلسطين والعالم إجمالاً كانت ولا تزال تتوخى هدفاً واحداً هو السيطرة على نقطة التركز فى الشرق الأوسط ، وأن السياسة الصهيونية كانت ولا تزال تتقلب تبعاً الظروف الطارئة ، فمرة وطن قومى ، ومرة حكم ثنائى ، ومرة تقسيم محدود يدون شرق الأردن ، وبعد ذلك — حين تواتى الظروف — أرض الميعاد بحدودها الطبيعية وهى تشمل أجزاء من مصر وسوريا والعراق ولبنان . فوازمان كتالين كان ولا يزال يتلاعب بتصريحات تتلاءم مع الظروف الحالية . والمتقدمون لتطور السلك الصهيونى يدركون ذلك تمام الإدراك .

فالتقلب فى سياسة روسيا الخارجية ، يعود إلى ثقة صناع السياسة فى الاتحاد السوفياتى من رسوخ النظام الذى يسوسونه خصوصاً وأن وسائل المواصلات الفكرية بين الشعب الروسى والعالم الخارجى خاضعة لمراقبة توجيهية دقيقة يتولاها خبراء مهرة مما يجعل للتصريحات الروسية الرسمية طابعين : طابعا للاستهلاك الخارجى ، وآخر للداخلى . وليس من الضرورى أن يتناسق الطابعان . وهذا فى الواقع مسلك تقليدى فى الدبلوماسية الدولية ، ولكنه لا يتخذ طابع الاتقان الذى يتخذه فى ظل الحكم السوفياتى المطلق .

وعلى أساس هذا الاستقرار فى النظام الشيوعى فى روسيا كان خبراء الأنجلوسكسون يعتقدون بأن برامج (البوليت بيرو) (والكومنفورم) الشيوعية الدولية لبلشفة العالم كهدف أساسى جوهرى لتدعيم الشيوعية فى روسيا والدول الشيوعية الأخرى — هذا البرنامج لا يزال موضوع العمل عند السوفيات ، وعلى هذا الأساس ، فلا صحة لادعاء الماركسيين الأخير بأن الشيوعية والرأسمالية والنظم الأخرى تستطيع أن تعيش بسلام فى عالم واحد

والحقيقة التى يشير إليها هؤلاء الخبراء (ومنهم بوهلن مستشار وزارة الخارجية الأمريكية) هى أن جوهر الفلسفة الماركسية يصر على أن لا حياة للدول والشعوب الشيوعية المبدأ والنظام فى عالم فيه شعوب ودول لا تدين بهذا المبدأ . وهذا الإصرار الماركسى يستند إلى نظريات فى الاقتصاد وعلم الاجتماع تحللها العقيدة الماركسية على طريقتها الديالكتيكية الجدلية ،

وليس المجال هنا لبحثها .

إذن فإن دعوة للسلم تأتي من جانب السوفيات هي في الواقع اكتساب للوقت ، وعرقلة برامج التسلح ، وإثارة الريبة بين خصوم حلفاء الغرب وهذه جميعها — ككل خطوة من خطوات السوفيات — تستند إلى تحليلات علمية — علمية لأنها مستمدة من السياسة الروسية المنظمة — وهي كالاقتصاد الموجه ومشاريع الخمس سنوات الاقتصادية تلتزم الدقة وتؤمن بالنتائج على أساس هذه الدقة .

وعلى أسس هذه السياسة الموجهة فإن السوفيات يعتقدون بأن كل مجتمع لا يدين بالشيوعية ولا يسير بموجب الاقتصاد الماركسي الموجه مآله إلى التفكك ، فهناك مشاكل التضخم المالي وبلبلة التوازن التجاري وصراع المال وأصحاب العمل مما يخلق مشاكل اقتصادية واجتماعية تؤدي إلى الثورة العالمية وتطرح بالنظم الرأسمالية في المراحل النهائية .

ولما كانت روسيا غير مستعدة الآن للحرب استعداد خصومها فمن الخير إطالة مدة الاستعداد وإيهام الدول الرأسمالية والرأي العام الدولي بالرغبة الصادقة في السلم، وفي ذلك مكسب مزدوج ؛ فهو يحقق النبوءة الماركسية في تفكك المجتمع الرأسمالي — كما تشير علانية إلى ذلك الدراسات السوفياتية للاقتصاد الأمريكي المعاصر — وهو يعطي روسيا متسعاً من الوقت للاستعداد .

والماركسية فوق ذلك تعتقد بأن طبيعة المجتمعات الرأسمالية متنافسة تسعى لالتهام بعضها البعض — وهذا التنافس أصيل مبعثه طبيعة النظم الاقتصادية على ظل الرأسمالية (والاشتراكية الغربية كبريطانيا ليست ماركسية حقة عند السوفيات) ولذلك فإذا نجحت روسيا في تخفيف حدة الموقف الدولي استطاعت أن أن تسبب فتوراً في شدة التحالف الأمريكي البريطاني وتترك النظم الرأسمالية تكتسب طبيعتها التنافسية فيقوض بعضها البعض بدل الاتحاد على تقويض الروس بأي ثمن .

ويستنتج من هذا كله — والاستنتاج نظري في أكثره — أن روسيا تعلم بأنها عاجزة الآن عن الكفاح المسلح لتعميم المذهب الشيوعي في كل مكان على أنقاض النظم والمجتمعات التي لا تؤمن بالماركسية — وهذا العجز تصور عن مجاراة المستوى الصناعي والقوة والدعامة المالية المتوفرة في المعسكر الغربي في الآونة الحالية على الأقل — وأنها تنهج سياسة عاجلة مؤقتة لتحقيق الحدة في معسكر الخصم عن طريق التلويح بغصن الزيتون .

وفوق ذلك فقد تكون تجربة المارشال تيتو في يوغسلافيا حيث مازج بين القومية المحلية الضيقة وبين النظام الماركسي ، وما يشاع من أن الشيوعيين الصينيين ينوون الاقتداء بتيتو — هذه التجربة جعلت موسكو ترى أن المجتمعات الشيوعية خارج الاتحاد السوفياتي قد لا تقبل الرضوخ مباشرة للكومنفورم والبوليت بيرو وإن كانتا تشبهانها في الاتحاد الفكري والأهداف . فإن النظام السوفياتي في روسيا قد جعلت من القيصرية الروسية الصارمة مجتمعاً روسياً يستسلم بسهولة للحكم المركزي المطلق . وهذه حالة فريدة قد لا تنطبق على كثير من المجتمعات الأخرى خصوصاً في أواسط أوروبا وشرقيها حيث تكثر الأقليات العنصرية والطائفية وعداؤها للحكم المركزي تقليدي . والواقع أن لينين وستالين قد أوليا مشكلة الأقليات دراسة وافية .

وهذه — كما ترى — حالات تصعب معالجتها على يد موسكو في جو دولي متوتر ، ولذلك فإن مراكز التوجيه في معسكر حلفاء الغرب تنظر إلى غصن الزيتون الذي حملته موسكو في الآونة الأخيرة على أنه مناورة بارعة في الصراع الدولي لا يلاقي رد فعل إيجابي لدى حلفاء الغرب .

وهذا يعني أن مشاكل السلم الحقيقية لا تزال على ما هي عليه من الخطورة السريعة الانفجار .

(نيويورك) عمر عليي

معهد الشؤون العربية الأمريكية في نيويورك

من مؤلفات نقولا الحداد العلمية

	ص
عالم الذرة أو الطاقة الذرية Atomic Energy	٣٠
هندسة الكون بحسب ناموس النسبية Relativity	٣٥
فلسفة التفاحة أو جاذبية نيوتن Newtons Oravitation	١٠

تطلب هذه الكتب من دار الرسالة ومن المؤلف في ٢ ش البورصة الجديدة ومن بعض المكاتب خالصة أجرة البريد